

الشعر الملحون الجزائري من الاحتلال الإسباني حتى الاحتلال الفرنسي

_ قراءة تاريخية _

الباحث: إبراهيم الهلاي:

دكتورالبي (جامعة تلمسان)

ملخص :

يشكل الشعر الملحون الثوري الجزائري أهم الأشكال الفنية التي استوعبت النضال التحريري والكفاح المسلح، من خلال توظيف الشاعر الشعبي والراوي هذا النمط الثقافي الشعبي خدمة وحفاظاً للأحداث التي سجلت تلك البطولات وقدمتها في شكل وثائق تاريخية، فالشعر الملحون الثوري وعلى تشتت نصوصه وبقاء أغلبها حكراً على الذاكرة الشفوية، تخزنه الصدور وتتناقله الألسنة إلا أنه يظل صورة حية باعتباره تأصيلاً مرجعياً وذاكرة. والشعر الملحون لم يكن غائباً عن خضم الأحداث الكبرى في تاريخ الجزائر ، فلقد صاحب هذا الشعر جيوش المقاومين منذ الفجر الأول لاحتلال الجزائر ، فكان أهازيج للنصر وسجلا للمعارك وبكاء على الشهداء والمدن .

الكلمات المفتاحية: الشعر الملحون، الاحتلال، الإسباني، الفرنسي ، التاريخ ، الذاكرة.

الأدب الشعبي أدب لصيق بالمجموعة البشرية التي تتخذه سجلاً شفويًا لها، وهو لذلك متنوع تنوعاً هائلاً في السمات التي تتصل بشكله ومادته لاختلاف اهتمامات الناس بين ثقافة وأخرى. ففي حين تفضل بعض المجتمعات الأغاني الشعبية تروق لبعضها الآخر الحكايات الشعبية والخرافات وأخرى يروق لها الشعر

الملحون. وهذا الاختلاف مرده إلى الاختلاف الجغرافي الذي يترك بصماته واضحة على المجموعة البشرية ولاسيما عندما ترتبط بمكان ما لحقبة طويلة من الزمن. وهنا وقع اختيارنا على الشعر الملحون فهو الذي اخترنت ذاكرة الحفاظ العديد من قصائده ، فتوارثته جيل بعد جيل بالرواية الشفوية .

والشاعر الشعبي الجزائري لم يكن أديبا، يتفنن في اختيار القوالب الجميلة لكي يؤثر في عواطف الناس، إنما كان يقول الشعر بطريقة تلقائية و عفوية، ويعيش محنة الاحتلال بكل آلامها، و جراحها، و يصور إحساس مواطنيه فيذكرهم بأحداث الماضي ليدفعهم إلى الجهاد والتضحية من أجل تحقيق حياة كريمة والشاعر الشعبي لا يهدف من وراء نظم الشعر إلى كسب الشهرة، أو الجاه وإنما يهدف من وراء شعره إلى تصوير مأساة غزو استعماري، استهدف دينه و ثقافته و عرض حياة مواطنيه إلى البؤس و حول أمنهم إلى خوف، ورعب و شقاء ودمار.(1)

ومهما كانت أهمية الحقائق التي تضمنتها كتب مؤرخي الاحتلال الفرنسي، فإن دراسة الشعر الملحون الثوري سوف تساعد على فهم الكثير من الملابسات أو التفسيرات التي تقبل الشك و تتعارض مع الحقائق التاريخية.(2)

¹ التلي بن شيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) ، الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع ، الجزائر ، 1983 ، ص99.

² - المرجع نفسه ، ص 243.

بالإقرار لهذا النص بقيمته المعرفية نكون قد وقفنا على عتبة تساؤل مهم حوله
هل يمكن قراءة نص الملحون قراءة تاريخية ؟

إن هذه الإشكالية تستدعي مدارس نصوص الملحون ، وكذا استقراء عديد الآراء حوله، سواء ما تعلق منها بأحكام " قيمة " ضد أو مع الملحون أو ما كان استطرادا له وتعليقا عليه.

فالشعر الملحون " رصد مختلف الأحداث التي شهدتها البلاد خلال فترات تاريخية مختلفة وسجل ذلك في ذاكرة الشعب ينقلها الأفراد من جيل إلى جيل، وكانت الأوضاع السيئة التي مر بها ، مثلها مثل الأوضاع السارة ، موضوعا يعبر عنه الشاعر الشعبي ، خاصة بعد أن فقد حريته ، فلم يجد الشعب متنفسا لمكوناته إلا في القصيدة الشعبية تسير بها الركبان وتتجمع حول روايتها الحلقات ويتغنى بها المداح في كل شعب من شعاب الأرض الجريحة ليضعها ضمادا على شغاف كل قلب مكدوم " (1).

وبذلك تمثل قصيدة الملحون انعكاسا لأهم المحطات التي استوقفت المسار التاريخي للجماعة ، وسجلا للحوادث الكبرى التي طبعت هذا المسار ، ومن ثم

¹ - عبد القادر خليفي : الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري ، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ، تبارت 13-14 أكتوبر 2002 ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص 135.

تبرز القيمة التاريخية للشعر الملحون ، ذلك أن التاريخ قد يسكت عند الفواصل ويتحاشى الهوامش ، غير أن شاعر الملحون تشد اهتماماته حتى دقائق الأمور وصغائر المجريات فيتوغل في التفاصيل ، حتى ليتمكن القول أن شاعر الملحون هو " مؤرخ غير رسمي " .

ويقر بذلك حتى بعض من وقف ضد شيوع هذا الفن ، ومنهم الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي يقول بشأنه : " ... وبذلك يكون رواج الشعر الشعبي دلالة على ضعف الثقافة الأدبية في البلاد ، فهو من الناحية الجدلية المحضنة ضد الثقافة ودليل على انحطاطها "(1) ، ليعود في موضع آخر ويجعل من نص الملحون وثيقة مهمة في التعرف على قضايا السلف ، حيث يقول : " ... فإن دراسته تكشف عن كثير من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد في العهد العثماني ، فالقصيدة الشعبية من هذه الزاوية عبارة عن وثيقة هامة ندرس من خلالها الحياة كما صورها الشاعر ، وتؤخذ منها المعلومات ثم تترك ، والشعر الشعبي مهم من حيث تسجيله لمشاعر الناس ضد أو مع العثمانيين ومواقف الجهاد ضد العدو الخارجي وتطور الحياة الدينية ، فالعودة إلى الشعر الشعبي ضرورة من ضرورات البحث " (2) .

¹ - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1989 ، ص

ومدونة الشعر الملحون الجزائري مليئة بالنماذج التي شكلت قيما تاريخية حقيقية ، فكانت تصويرا للأحداث والوقائع . ومن ذلك وقوف الشاعر التلمساني (ابن مسايب) ليصف الأحوال العامة لمدينة تلمسان تحت الحكم العثماني، حيث تحولت النعماء وتفشى الفساد وضاق الأمر على العباد، فيقول ناقما على الأتراك⁽¹⁾:

هَمَّا سَبَبُ كُلِّ فُسَادٍ وَعَفْنَانَا تَهْوِي وَلَا قَرَأَ حَدَّ فِيهَا أَمَانُ
 طَلَّقُوا الْبَلَدَ فَسَدَتْ حَتَّى شَفْنَاهَا هِيَهَاتَ لَا حَكْمَ فِيهَا لَا دِيْوَانَ
 هَمَّا سَبَبُ كُلِّ مَشَقَّةٍ وَالخَلْقُ صَابِرَةٌ لِبَلَاهِمِ
 طَلَّقُوا الْبَلَدَ هَذَا الطَّلَقَةَ وَأَنْسَبَاتٍ وَهَمَّا يَرْكَبُهُمْ
 رَاهَا نَعْمَاتٍ وَأَشْ بِقِي غَرَقُوا أَوْلَادَهَا وَنَسَاهُمْ
 مِنْ الْقُلُوبِ زَالَتِ الشَّفَقَةُ مَا يَرْفُقُوا يَا وَيْلَاهُمْ

والشعر الملحون لم يكن غائبا عن خضم الأحداث الكبرى في تاريخ الجزائر ، فلقد صاحب هذا الشعر جيوش المقاومين منذ الفجر الأول لاحتلال الجزائر ، فكان أهازيج للنصر وسجلا للمعارك وبكاء على الشهداء والمدن . فهذا عميد

¹ - ابن مسايب : الديوان ، جمع وتحقيق : محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، نشر دار ابن خلدون تلمسان الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص 29.

شعراء الملحون بالجزائر (الأخصر بن خلوف) يسجل لنا " معركة مزغران " سنة 1558 م بين القوات الجزائرية-العثمانية والحشود الإسبانية ، فيقول⁽¹⁾:

يا فارس من ثم جيت اليوم قصة مزغران معلومة

يا عجلان ربيض المدجوم ريت جناب الشلو موشومة

يا سايلني على طراد القوم قصة مزغران معلومة

يا سايلني كيف ذا القصة بين النصراني و خير الدين

اجتمعوا في برنا الأقصى بجش قوية وجاو متهددين

ترى سفون الروم متحوصى صبحوا في الميناء اعداء الدين

خرجو لك للبر خرج الشوم واتجلاو من فوق الما

عبر البارية او كيل القوم لك باعمال محترمة

كما سجل الشاعر (ولد عمر) هجوم الأسطول الداغماركي على الجزائر سنة 1770 بقصيدة تفيض وطنية وحماسة وغيره على الأرض والدين ، حيث يقول⁽¹⁾:

¹ - الأخصر بن خلوف : الديوان ، جمعه وقدمه محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، نشر دار ابن خلدون تلمسان ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص 182.

استمع يا قوم ما طرا في هذي القصة نعيده

قصة ذا الكفار ظاهرا الدائمك اخزيو جده

حين مشات لهم بلا كرة غنموها الإسلام كثيرة

ولقد سجلت كثير من الدراسات نماذج عدة لقصائد من الملحون ذات بعد تاريخي⁽²⁾. ولئن كان شاعر الملحون ليس همه التاريخ بقدر ما كان همه التنفيس عما بداخله فإنه قدم لنا مادة تاريخية غزيرة ، يمكن الاطمئنان إلى كثير منها باعتبارها رسدا دقيقا لحقائق تاريخية ووقائع عينية ، ويقدم لنا شاعر الملحون في

¹ - جلول يلس ، الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص ص 29-34.

² - ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

- العربي دحو : الشعر الشعبي والثورة التحريرية (جزآن) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.

- العربي دحو : الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة من 1955 إلى 1962 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984.

- جلول يلس ، الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون (مرجع مذكور).

- التلي بن شيخ : دراسات في الأدب الشعبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د.ط ، د.ت.

- التلي بن شيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983.

- عبد المالك مرتاض : في الشعر الشعبي الجزائري ، مجلة التراث الشعبي ، ع2 ، سنة 1978.

- المجلس الأعلى للغة العربية : أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ، تيارت 13-14 أكتوبر 2002 ، د.ط ، د.ت.

محطات كثيرة أوصافا لحوادث تاريخية مطابقة لما جاء في الكتب التاريخية الرسمية ؛
ومن ذلك وصف الشاعر (بشير بن عدة) لسقوط مدينة الجزائر وما لحقه - هو
- من فاجعة الهزيمة ، فيقول⁽¹⁾:

يوم حراك الفرنسي على السلطان لا طلاً يا علي وجعفر
أقمانت بعد عزها حرة الاوطان حزني حزني على الجزائر
بعد العيش العزيز ولات في الاحزان بايت سلطانها محير
الإسلام منكدين و ازهاو الخزيان تشاهد كرغلان وحضر
ولات هلعاً ناسها من بعد لامان كاللي ما جوها مساير

ويتفق الشاعر عدة بن بشير مع من سبقه أو عاصره من الشعراء في أن جيش
الاحتلال كان أكثر عدداً وأحسن تنظيماً من الجيش الجزائري ، بحيث كان يغطي
البر والبحر ، ولكنه ، أي الشاعر ، مع هذا الاعتراف بتفوق العدو لم يتقبل الهزيمة
، وبتعبير أدق لا يرى أن هذا وحده كاف ، ذلك أن الجيش الجزائري النظامي لم

¹ - حلول بلس ، الحفاوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، ص 44.

يكن وحده في المعركة ، وإنما شارك في الدفاع عن العاصمة كل من قسنطينة
والتيطري (المدية) وجموع غفيرة من الجزائريين جاءت من القرى والجبال (1) .
حيث يقول الشاعر (2):

جات سفون الفرنسييس من كل مكان غطات الموج ليس يظهر
انزل للبر جندهم بالغيض مليان كاسي الاسهال والحدابير
اخرج لاغا واخرج اترك الديوان صبحت بطبولها تنقر
قسنطينة و تيطري زادت باعيان وقنابل من جبال ودشر
كيّ هذي لذيك حصلا خلاّ شيعة شناه ظاهر

والتاريخ يثبت شهادة هذا الشاعر ، حيث " أرسل حسين باشا المراسيل إلى
داخل البلاد يدعون إلى الجهاد ضد الفرنسيين . وقد استجاب لندائه الرسمىون
والأهالي على السواء . فوعده الحاج أحمد باي قسنطينة بـ 30.000 محارب ،
ووعده حسن باي وهران بـ 6.000 محارب بقيادة الخليفة نظرا لكبر سن الباي ،
ووعده مصطفى بومزراق باي التيطري بـ 20.000 محارب ، وجمع أهالي ميزاب

1- التلي بن شيخ : دور الشعر الشعبي في الثورة ، ص 119.

2- المرجع نفسه ، ص 120 ، وكذلك : جلول بلس ، الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر
الملحون ، ص 44.

حوالي 4000 محارب . وأرسل حسين أيضا إلى باي وهران يأمره بتحصين الميناء ، كما أرسل إلى باي قسنطينة يأمره بتحصين ميناء عنابة ويستقدمه إلى العاصمة طبقا للتقاليد التي تقتضي القدوم كل ثلاث سنوات ، وأمر الباشا أيضا بإجراء إحصاء لعمال مدينة الجزائر وإرسالهم إلى القلاع للدفاع عنها " (1).

ثم إن الشاعر (بشير بن عدة) يتتبع سقوط مدن جزائرية أخرى ، فيصف سقوط مدينة وهران بعد أن أخلاها قادة الأتراك وتركوها لمصيرها دون مقاومة ؛ فيقول (2):

قصة هذا البلاد عظيمة اخلات بلا طراد وهران
رحلو وهداوها مقيمة سمحو في زيتن المساكن
كانت للحاسدين نقمة مخونها من قديم مخزن
ابقا لليهود الداسر ثم همّا وفرانسا الملعون

ثم إن الشعر الملحون ساير المقاومات الشعبية ووصف معاركها ضد الاستعمار مشيدا بطولات رجالها . وكان ينوه بانتصاراتها ويأسف لانكساراتها، ومن ذلك

¹ - أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط3 ، 1982 ، ص 39.

² - التلي بن شيوخ : دور الشعر الشعبي في الثورة ، ص 121. وكذلك : جلول يلس ، الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، ص 46.

قصيدة للشاعر ابن عبد الله تحت عنوان (صال الدهر عليها انطوت عليها السنين
(¹)، التي أرخ فيها لمبايعة الأمير عبد القادر وكذا احتلال مدينة قسنطينة ثم أحداث
معارك سنة 1837 . حيث يقول :

قصة بن محي الدين يا الكتاب أتأمل فيها يا فطين خمم
ولد القيطنة هاشمي شريف الانساب علم وحكمة والجاه والنعام
حين كبر محي الدين شيخ الاعراب اعطاه السر وطابعه امزمم
نصروه اعرابها وبايعوه الانجاب قضيا ومفاتا شيوخها وعالم
ناصر للدين احياه يقهر الكافرين توكل على الله ربنا التواب
بجيوش وخلفاوات دار صوره حصين اشيوخ امكلف مالنجوع رقاب
بوحميدي الوهاصي لبيب المخلصين والخلادي رقبة وسيف رهاب
في مناصر بركاني الشجيع خصلة ودين وبن سالم لا كيفه شجيع ينصاب

وقد واكب الشعر الملحون تطور المقاومة الجزائرية وصور الظروف الاقتصادية
والاجتماعية القاسية التي عاشها الشعب الجزائري ، مثلما ربط هذا الواقع المؤلم

¹ - أنظرها كاملة في : جلول يلس ، الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، ص ص 48-
54.

بالماضي المجيد ، فدعا إلى ضرورة المحافظة على مقومات الشخصية القومية ، دينا ولغة وثقافة لأنها تشكل المناعة ضد محاولات الذوبان في " الفرنسية " التي عمل الاحتلال الفرنسي بكل الوسائل لفرضها على الشعب الجزائري⁽¹⁾ .

ويشكل الشعر الملحون فضاء للتخييل بينما يمثل الواقع الموضوع الأساسي للتاريخ، ومنه يكون البحث عن التاريخ ضمن النص بمثابة إدماج للواقع بالتخييل فالشعر أكثر فلسفة من التاريخ ، كلمة قالها أرسطو و لخص فيها نظراته إلى هذين المجالين، و لعله قصد أن الأدب يميل إلى العام أكثر من التاريخ مادام الأول ينظر إلى الأحداث و الظروف و المستقبل بصفة أكثر تجريدا و عمومية، بينما يلي التاريخ إلى تسجيل الأحداث التي وقعت فعلا، و هو بذلك يؤكد الخاص والفردى (...). والفرق بينهما ليس في أن الأول يكتب موزونا و الثاني منشورا، لأن التاريخ يمكن أن يكتب على صيغة نظم كما هو الشأن في أعمال المؤرخ هيرودوت⁽²⁾ .

فطالما اتخذ الشعر من التاريخ موضوعا و اتخذ التاريخ من "الشعر قناة للتواصل مع السيرورة الزمنية"، و لذلك باعتبار أن: الأحداث التاريخية و الشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي، فإن لها

¹ - التلي بن شيخ : دور الشعر الشعبي في الثورة ، ص 06.

² - حسين خمري ، الظاهرة الشعرية العربية/الحضور والغياب ، إتحاد الكتاب العرب، دمشق ، 2001، ص82.

إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية و القابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغ و أشكال أخرى⁽¹⁾.

ومن ثم يكون الملحون بمثابة تأريخ "شفهي" لما هو عيني أو مواقع بالاستبصار و الحضور، باعتبار أن تجربة النص تجربة معاينة أو محاثة. و مدارس الملحون من مضامينه التاريخية تستدعي حفرا معرفيا في النص باعتباره "مادة" خاما.

والأخذ بهذه المادة: مع إخضاعها للبحث و النقد التاريخي، و وضعها في سياق بينها الاجتماعية و التاريخية و الجغرافية، يمكن أن تسد بعض الفراغ التاريخي، وتفسر بعض الظواهر الاجتماعية، فتعطينا صورة حية للماضي أو تجعل حيا ينبض أمامنا⁽²⁾.

فالملاحون كرواية شفهية متواترة- يمكنه حفظ جزء مهم من الذاكرة الجمعية وهي بذلك "تتري الرواية التاريخية الموثقة و تعطيها بعدا إنسانيا فيه آمال و آلام، ليس مجرد سرد للواقع و الأحداث بطريقة لا حركة فيها و لا شعور"⁽³⁾. والملاحون

¹ - علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1997، ص 120.

² - أشرف صالح ، افتتاحية : التراث الشفاهي ، مجلة كان التاريخية (دورية عربية محكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية) ، دار ناشري للنشر الالكتروني ، الكويت ، ص 07.

³ - المرجع نفسه.

لا يقف فقط عند تصوير الأحداث تصويراً فوتوغرافياً بل إنه يضيف عليها -أحيانا- مسحة "الشعبية" حين يقوم بتفسيرها أو تعليلها.

ومن ذلك السير الشعبية التي استطاعت أن تمزج التاريخ بالثقافة "الشعبية" المبنية أساساً على "الشفاهي" وقد استطاعت هذه السير "تمثل التاريخ، وسمحت لنفسها بإضافة ما يتوافق مع عصرها و سياقها الاجتماعي"⁽¹⁾.

غير أنه بالإقرار لنص الملحون بقيمته المعرفية هاته، نكون قد وقعنا على عتبة تساؤل معرفي مهم حوله: هل يمكن اعتبار الملحون وثيقة تاريخية؟

كما قام الشاعر الشعبي بدور بارز في مجال الإعلام، و التبليغ، فكان ينظم القصيدة ويتغنّى بها في ميدان المعركة أو ينشدها و هو يتجول في القرى والأسواق حيث يتلقاها الرواة والحفظة، و بالتالي كان يصوغ أحداث الثورة ومعاركها الضارية شعراً و نشيداً للعبرة والعظة، و إذكاء الحماس في النفوس⁽²⁾.

وفي تلك المرحلة لم تكن توجد صحافة، أو إذاعة، يطلع بواسطتها على ما كان يجري في البلاد، و إنما كان المواطنون العزل يعيشون في ظلمة، و عزلة تامة و إذا جرت معركة في جهة من المنطقة، لا تبعد عن الجهة المجاورة إلا بضعة أميال، لا يسمع بها هؤلاء إلا بعد أسابيع، و أحيانا عدة شهور، زد على ذلك أن قوات

¹ - احمد قنشوبة ، المرجع السابق ، ص

² - التلي بن الشيخ ، المرجع السابق ، ص 100 .

المستعمر كانت تفرض قيوداً و حصاراً شديداً على السكان، و كتمان أخبار الثورة الجزائرية، وانتصاراتها حتى لا تتسرب إلى المناطق الأخرى، كما كانت شديدة الرقابة على تنقلات المواطنين من جهة إلى جهة، لكي تعزل كل منطقة عن غيرها، فلا دخول و لا خروج إلا بإذن كتابي من طرف قائد المنطقة (نقيب القسم الإداري المختص). بحيث كان الحديث عن الثورة و الثوار يعني نهاية حياة أي فرد يتجرأ على إفشاء " الأسرار"، و نشرها بين الناس" (1) .

ولقد شكل الشعر الشعبي(الملحون) أهم الأشكال الفنية التي استوعبت النضال التحريري والكفاح المسلح في الجزائر عامة، حيث وظف الشاعر و الراوي هذا النمط الثقافي الشعبي لخدمة أهداف الثورة التحريرية وإحياء النخوة العربية في ضمائر الجماهير الشعبية و تجنيدها حول القضية الوطنية، ومن الطبيعي أن يقف الشاعر الشعبي إلى جانب الثورة التحريرية إما بالكلمة، أو الكلمة و البندقية. لأن جزء منها تألم بالأمها، وسايرها عبر مختلف مراحلها، و لعل بعض شعراء الملحون الذين كانوا فرسانا في القول و النزال أحسن مثال للوطنيين الثائرين أثناء اندلاع الثورة (2) .

¹ - محمد لمقامي، رجال الخفاء: مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص 107.

² - غوثي شقرون، الأغنية البدوية الثورية بين فترتي الثورة والاستقلال (1954_1962) منطقة واد الشولي نموذجاً، جمع ودراسة (مخطوط)، رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2004-2005، ص 48.

ولقد تمكن الشاعر الشعبي الجزائري أن يخلد تاريخ ثورة نوفمبر المجيدة وذلك بطريقة نعتبرها من أهم ما قدمه الشعر الملحون لدراسة الثورة، في تلك الظروف دراسة تكون أكثر تعمقا، وأوضح منهجا، من طريقة الاعتماد على "الوثائق" الرسمية الفرنسية التي كتبها الفرنسيون خاصة و الغرييون عامة عن الثورة الجزائرية⁽¹⁾ .

ومهما كانت أهمية الحقائق التي تضمنتها كتب مؤرخي الاحتلال الفرنسي، فإن دراسة الشعر الملحون الثوري سوف تساعد على فهم الكثير من الملابسات أو التفسيرات التي تقبل الشك و تتعارض مع الحقائق التاريخية⁽²⁾ .

ونعتقد أن فترة الثورة الجزائرية المسلحة من أدق مراحل كفاح الشعب الجزائري، وأكثرها تعقيدا، وهو ما يعطي دراسة الشعر الملحون الثوري اعتباراً هاماً، يضاف إلى هذا أن دور الأدب الرسمي في هذه المرحلة يكاد لا يتعرض لهذا الموضوع، ولا نزعم أن الصورة التي يقدمها لنا الشعر الملحون صادقة كل الصدق لا يتطرق إليها الافتراض والاحتمال⁽³⁾ . ومن ثم يجب الاعتماد عليها بصورة أساسية، وإنما نرى أن دراسة الشعر الملحون سوف تلقى المزيد من الأضواء على القضايا التي ما تزال في حاجة ماسة إلى التوضيح والفهم بطريقة أفضل⁽⁴⁾ .

¹ - التلي بن الشيخ ، المرجع السابق ، ص 243.

² - المرجع نفسه ، ص 243.

³ - المرجع نفسه .

⁴ - فضيلة دهماني، الأنشودة الشعبية ابان الثورة التحريرية (1954_1962) ، دراسة تحليلية (مخطوط) رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2008/ 2009، ص34.

ومن هنا لا بد من التنبيه بأن نصوص الشعر الملحون الثوري والتي استقيناها من المنطقة الأولى التي هي منطلق الشرارة الأولى للثورة بالناحية ومقر القيادة و الجيش معاً، و رمز الصمود والشموخ لتنبثق منها نصوص شعرية غزيرة بمادتها ، لتمتد إليها الأفواه لارتشافها والأيدي لاستقطابها و رعائتها من الضياع، فتلقفتها أرباب الأقلام و كشفت اللثام عن مكنونها الفني الجميل، و لكننا لم نأل جهداً في إهدار ثرائنا، ناهيك عما بددناه من هذه النصوص الثمينة⁽¹⁾ .

إن تداول النصوص الشعرية الشعبية يعد من الأهمية بمكان حيث أن وضع الجماهير الشعبية هو الذي فرضها، فرددها مختلف الطبقات، إلى جانب ذلك البعد الزمني بيننا وبين تلك الحوادث فأمتست تلك النصوص في طي النسيان وباتت معظمها شرانق منغلقة على نفسها، طرقتاً مسدودة مقطوعة الصلة بخارجها مما أدى إلى سرعة اندثارها وضعف فاعليتها ووظيفتها، لأن دورها لم يعد مرغوباً فيه⁽²⁾ .

ومهما عبرنا عن ذلك فإننا لن نجد تلخيصاً أدق من ذلك الذي خرج به العربي دحو، حيث قال: " إن انتهاء وظيفة هذه النصوص في مفهومهم لأن دورها لم يعد مرغوباً فيه، قد قالوها قبل الثورة شاكين، أو واصفين، أو متغزلين، أو باكين، أو كاشفين عن عربيتهم ومأساتهم، أو قالوها في الثورة لمدح مجاهد، أو انتقاد وضع أو

¹ - المرجع نفسه ، ص 44 .

² - العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص62.

تحمس مواطن، أو استهزاء بعدو، أو لتاريخ واقعة من الوقائع أو حادثة من الحوادث، وهذه الموضوعات اليوم أخذت شكلا آخر، لذلك تقلصت وظيفة نصوص الفترتين المتقدمتين و لم يبق منها غير التسلية⁽¹⁾ .

فمهما ذكرت الأسباب و بغض النظر عنها، وذهابنا حيث شئنا، وحيثما نظرنا وكيفما بحثنا وتبصرنا، نجد أنفسنا أمام ظاهرة ندرة النصوص، التي غضوا عنها الطرف و صرفوا عنها اهتمامهم في الجمع والبحث والدراسة، فأمست ككل النصوص التراثية، التي تنتهي وظيفتها في قبضة المجهول، و غدت في حقبة المفقودين، بينما كانت يوم ما فكرا ناقدا تخترق مسام الجلود، ورجع الصدى الذي يعكس مطالب المتلقين و أهوائهم⁽²⁾ .

ومن هنا يحق لنا القول: إن نصوص الشعر الملحون الثوري الجزائري إنما هي تراث ماضيها وفكر حاضرنا، و تاريخ مستقبلنا و ذاكرة أجيالنا، لحسبك أمها و ثائق تاريخية فنية، بل و حقائق واقعية موضوعية جد هامة، تحاشت المجاملة وابتعدت عن التزوير، كما يحدث في جل الوثائق التي تتحكم فيها عوامل شتى ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذه النصوص وخاصة نصوص الشعر الملحون الثوري، فهي نماذج لها قيمة كبيرة، فإن لم تكن مستوعبة لكل الأحداث ولكنها حاولت أن

¹ - المرجع نفسه ، ص 62.

² - فضيلة دحماني ، المرجع السابق ، ص 35.

تعطي وصف للمنطلقات وأسس للشخصية الجزائرية والواقع الجزائري وما يتصل به قبيل الثورة والأهداف التي كانت ترجوها، جعلتنا نتصور الجو الذي كان سائدا في تلك الفترة⁽¹⁾ .

أما النص الشعري الملحون فهو كما لا يخفى على أحد، نص وظيفي، عملي ينشأ لغاية ويؤدي في مناسبة، يتغير بتغير الأحوال، فإذا مرت المناسبة أو تغيرت الظروف اندثرت وحلت نصوص أخرى تكون مسيرة للظروف وللأحداث الجديدة فهو يواكب كل مرحلة على حدا، ويتميز بسمات خاصة به⁽²⁾ .

ومن هنا لا بد من القول أن الشعراء أدلوا بدلوهم من منيع الثورة الخصب الشجاع بالصور والبطولات وعكسوا إشعاعها البطولي، واقتفوا أثرها الإنساني وغرفوا منه ما يتصل بالثورة اجتماعيا وعسكريا ودينيا⁽³⁾ .

وقد تناولت تلك النصوص عدة موضوعات، زد على ذلك أن الشعر الملحون كان ملازما للثورة، ولكل المعارك التي خاضها الشعب الجزائري ، منذ اندلاعها سنة

¹ - المرجع نفسه ، ص 36.

² - العربي دحو، بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص38.

³ - المرجع نفسه.

أربعة وخمسين ومرحلة الاستقلال وكان أكثر حضورا من أي شكل أدبي آخر نظرا للطبيعة الشعبية لهذه الثورة⁽¹⁾ .

والنماذج في حقيقة الأمر أكثر من أن تحصى أو يتمكن باحث في الوقوف عليها جميعها ، ذلك أن الشعر الملحون في تلك الفترات المجيدة من تاريخ الجزائر كان يتمثل كل الحوادث في متنه دون أن يتخطى موقعة، حتى وإن بدت خفيفة الوقع في التاريخ ، وكان شاعر الملحون بمثابة " المراسل الصحفي " الذي يتقصى الوقائع ويتخللها بالتفصيل والمعاينة بغية إيصالها كما حدثت للجماهير الشعبية العريضة ، إلا أن شاعر الملحون غالبا ما يشحن التاريخ بشحنات عاطفية باعتباره جزءا من الحدث متمكرا في نواته .

فالشعر الملحون الثوري وعلى تشتت نصوصه وبقاء أغلبها حكرا على الذاكرة الشفوية ، تخزنه الصدور وتتناقله الألسنة إلا انه يظل صورة حية عن نضالات الشعب الجزائري ضد قوى الاستعمار، التي حاولت ما أمكنها طمس معالم الهوية الثقافية ، باعتبارها تأصيلا مرجعيا وذاكرة ، وهكذا كان الملحون معطى ثقافيا لغويا ، خزانة للقيم الوجودية للفرد والجماعة، وكان المعبر الأصدق عن معاناة هذا الشعب وطموحاته وتوقه للحرية.

¹ - المرجع نفسه ، ص 38.

المصادر والمراجع

- 1- ابن مسايب : الديوان ، جمع وتحقيق : محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، نشر ابن خلدون تلمسان الجزائر ، د.ط ، د.ت .
- 2- الأخصر بن خلوف : الديوان ، جمعه وقدمه محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، نشر ابن خلدون تلمسان ، الجزائر ، د.ط ، د.ت
- 3- أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط3 ، 1982.
- 4- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1989.
- 5- أشرف صالح ، افتتاحية : التراث الشفاهي ، مجلة كان التاريخية (دورية عربية محكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية) ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، الكويت.
- 6- التلي بن شيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1983
- 7- العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 8- العربي دحو: بعض النماذج الوطنية في الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

- 9- جلول يلس ، الحفناوي أمقران : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ط ، د.ت.
- 10- حسين خمري ، الظاهرة الشعرية العربية/الحضور والغياب ، إتحاد الكتاب العرب،دمشق ، 2001.
- 11- عبد القادر خليفي : الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري ، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ، تيارت 13-14 أكتوبر 2002 ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، د.ط ، د.ت
- 12- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1997.
- 13- محمد لمقامي ،رجال الخفاء: مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر، 2005 .

- الرسائل الجامعية:

- 1- غوثي شقرون، الأغنية البدوية الثورية بين فئرتي الثورة والاستقلال(1954_1962) منطقة واد الشولي نموذجاً، جمع ودراسة (مخطوط)،رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تلمسان، 2004-2005.

2- فضيلة دحماني، الأنشودة الشعبية إبان الثورة التحريرية (1954_1962) ،
دراسة تحليلية (مخطوط) رسالة ماجستير في الأدب الشعبي، كلية الآداب والعلوم
الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2008/ 2009.